الباب السابع

اليونان فى الغرب

الفصل الأول

السيباريون

بعد أن تمر سفينتنا الخيالية بسنيوم Sunium وتتجه نحو الغرب تصل إلى سثرا Cythera مقر أفروديتى الجزرى ، والتى كانت من أجل هذا مقصد وتو Watteau (*) . وفيها شاهد پوزنياس فى عام ١٦٠ م (أقدس وأقدم ما شاده اليونان من الهياكل لأفروديتى[١] » ، وفيها كشف شليمان فى عام ١٨٨٧ م عن أنقاض هـذا الهيكل[٢] . وكانت فى أقصى الجنوب من الجزائر الأيونية التى تجاور ساحل بلاد اليونان الغربى وقد سميت أيونية لأن مهاجرين أيونيين استقروا فيها ، وبقية هذه الجزائر هى زاسنثوس Zacynthos ، وكيفالينيا Cephalenia ، وإثكا Ithaca ، واوكاس Leucas ، وباكوس Paxos ، وكورسيرا Corcyra . وحسب شليمان أن إثكا هى جزيرة أديسيوس ، وحاول عبثاً أن يجد تحت ثراها ما يؤيد قصة هومر[٣] . غير أن دورپفلد Dörpfeld كان يعتقد أن موطن أديسيوس هو جزيرة لوكاس الصخرية . ويقول استرابون إن أهل هذه الجزيرة القدامى كانوا يلقون من فوق صخورها ضحية بشرية يقدمونها فى كل عام قرباناً لأپلو ؛

(*) كانت صورة Embarkation for Cythera (السفر إلى سثرا) التى صورها وتو تمثل روح الطبقات العليا فى فرنسا خلال القرن الثامن عشر بعد أن تخلت عن الدين القديم الذى يسمح لها بأن تكون أبيقورية .

ولكن هؤلاء السكان لم يكونوا رجال دين فحسب بل كانوا فوق ذلك بشراً ، ولهذا كانوا يربطون فى الضحية طيوراً قوية شفقة بها ورحمة ، حتى تخفف أجنحتها من شدة الصـــدمة عند سقوط الضحية على الأرض(٤) . والراجح أن قفزة سافو نفسها ذات اتصال بذكريات هذه العادة الدينية . واحتل كرسيرا (كورفو Corfu) مستعمرون كورنثة حوالى ٧٣٤ ق . م ، ولم يلبثوا أن أصبح لهم من القوة ما أمكنهم بها أن يهزموا أسطول كورنثة ويقرروا استقلالهم . وسافر بعض المغامرين اليونان من كرسيرا فى البحر الأدرياوى متجهين نحو الشمال حتى وصلوا إلى البندقية ؛ واستقر بعضهم فى مستعمرات صغيرة على ساحل دلماشيا ، وفى وادى نهر البو Po(٥)، وعبر بعضهم آخر الأمر مياه البحر الهائجة وقطعوا فيها خمسين ميلا حتى استقروا فى كعب إيطاليا . ووجدوا فى ذلك المكان شاطئاً جميلا ينحنى فتتكون من انحنائه مرافئ طبيعة آمنة ، ومن ورائه أرض خصبة أهملها السكان الأصليون إهمالا يكاد أن يكون تاماً(٦) . واستولى الغزاة اليونان على هذا الإقليم الساحلى بمقتضى قانون التوسع الاستعمارى الذى لا يعرف للرحمة معنى ، وهو القانون القائل إن الموارد الطبيعية التى لا يستغلها أهل الإقليم تجتذب ، بنوع من الجاذبية الكيميائية ، غيرهم من الناس ليستغلوها ويدفعوا بها إلى تجارة العالم ومنفعته . واخترق الوافدون الجدد — وأكثرهم من الدوريين — كعب شبه الجزيرة مبتدئين من برنتيزيوم (برنديزى) وأنشأوا مدينة كبيرة فى تاراس Taras — تارنتم الرومانية (تارنتو الحديثة)(*) وفيها غرسوا أشجار الزيتون وربوا الخيول ، وصنعوا الفخار ، وبنوا السفن ، وصادوا

---

(٥) ذكرنا فى جدول الحوادث التاريخية المتسلسلة التواريخ المتواترة لإنشاء هذه المدن فى غرب بلاد اليونان وقد أخذ ثوكيديدس هذه التواريخ عن المؤرخ القديم أنتيكوس السرقوسى Antiochus of Syracuse . ومظنة الخطأ فيها كبيرة ، ويعتقد مهنى Mahaffy أن المدن التى أنشئت فى صقلية قد أنشئت فى عهود متأخرة عن العهد الذى أنشئت فيه المدن الإيطالية . غير أن تواريخ ثوكيديدس لا يزال يؤيدها كثيرون من المؤرخين(٧) .

السمك بالشباك ، وجمعوا بعض القواقع البحرية ليستخرجوا منها الصبغة الأرجوانية التى كانت أغلى قيمة من نظيرتها الفينيقية[٨] . وبدأت الحكومة كما بدأت معظم المستعمرات اليونانية بأن كانت أجاركية يتولاها ملاك الأرض ، ثم انتقلت إلى أيدى طغاة تمدهم بالمال الطبقة الوسطى ، واستمتعت بفترات من الحكم الديمقراطى القوى المضطرب . وفى هذا المكان نزل پيرّس صاحب الشخصية الروائية فى عام ٢٨١ ، وأراد أن يقوم فى الغرب بالدور الذى قام به الإسكندر فى الشرق .

وأسست موجة أخرى من المهاجرين معظمهم من الآخيين مدينتى سيبارس وكروتونا على الجانب الآخر من خليج تارنتم . وتدل الغيرة القاتلة التى نشاهدها بين هذه الدول ، وكلها من أصل واحد ، على ما كان يتصف به اليونان من نشاط قوى مبدع ، وعواطف جياشة مدمرة . وكان للتجارة بين بلاد اليونان الشرقية وإيطاليا الغربية طريقان أحدهما بحرى والثانى برى فى بعض أجزائه . وكانت السفن التى تسير فى الطريق البحرى تمر بكروتونا وتبادل فيها بالكثير من بضائعها ، وتمر بعدها برجيوم Rhegium وتؤدى فيها المكوس ، ثم تجتاز فى حذر بحاراً موبوءة بالقراصنة ، ومضيق مسينا الكثير الدوامات ، حتى تقبل إلى إلياوكومى ، أقصى المستعمرات اليونانية فى إيطاليا شمالا . وكان التجار الذين يختارون الطريق الآخر يفرغون بضائعهم فى سيبارس ليفروا من هذه المكوس والأخطار ، وليوفروا على أنفسهم عناء السير بحراً بالمجاذيف والشراع ، ثم ينقلونها بطريق البر نحو ثلاثين ميلا إلى ساحل لوس Laus الغربى ، ثم يحملونها مرة أخرى على ظهور السفن إلى پوسيدونيا ، ومنها تنتقل إلى الأسواق فى داخل إيطاليا .

وكانت سيبارس ذات موقع حسن على هذا الطريق التجارى ، فأثرت وعمها الرخاء حتى بلغ عامرها (إذا جاز لنا أن نصدق أقوال د يودور الصقلى[٩])

ثلثمائة ألف نسمة ، وأثرت ثراء لا يضارعها فيه إلا القليل من مدن اليونان ، حيث أضحت كلمة سيبارى مرادفة لكلمة أبيقورى . وكان العمل الجثمانى كله يقوم به العبيد ورقيق الأرض ، أما المواطنون الأحرار فكانوا يرتدون الثياب الغالية ، ويسكنون بيوتاً مترفة مريحة ، ويطعمون الأطعمة الشهية الواردة من خارج البلاد(*) . وكان يحرم على من يشتغلون بأعمال ذات جلبة أن يمارسوا صناعتهم فى داخل حدود المدينة . وكانت بعض الطرقات فى الأحياء الغنية من المدينة تغطيها خيام ومظلات لتقى الناس شر الحر والمطر(١١) . ويقول أرسطو إنه كان لألسسثنيز السيبارى ثوب من نسيج بلغ من عظيم قيمته أن باعه ديونيسيوس الأول السرقوسى فيما بعد بمائة وعشرين وزنة (٧٢٠٫٠٠٠ ريال أمريكى(١٢)) . ولما جاء اسمندريدز Smyndyrides السيبارى فى زيارة لسكيون ليخطب ابنة كليسثنيز ، كان معه ألف خادم(١٣) .

وسارت الأمور على أذلالها فى سيبارس حتى انزلقت إلى الحرب مع كروتونا المجاورة لها (٥١٠) . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن السيباريين سارو إلى الحرب بجيش تبلغ عدته ثلثمائة ألف(١٥) . وتؤكد لنا هذه الرواية نفسها أن الكروتيين أحدثوا الاضطراب فى صفوف هـــذا الجيش بأن عزفوا النغمات التى علم السيباريون خيولهم أن يرقصوا عليها(١٦) . فلما سمعتها الخيل رقصت ، وأعمل الأعداء فيهم القتل ، ونهبوا مدينتهم ، وخربوها ، وأشعلوا فيها النيران ، حتى اختفت من التاريخ فى يوم واحد . ولما أن قام هيرودوت وغيره من الأثينيين بعد خمس وستين سنة من ذلك الوقت بالقرب من موقعها مستعمرة تورلى Thurli الجديدة ، لم يكادوا يجدون فى هذا الموضع أثراً لهذه الجالية التى كانت فى يوم من الأيام أكثر الجاليات اليونانية زهواً .

(*) ويقول أثنيوس إن الطهاة أو صانعى الحلوى الذين كانوا يبتدعون أصنافاً جديدة كان يسمح لهم بأن يسجلوها باسمهم ويحتكروها مدى عام(١٠). وربما كان أثينيوس يخلط فى هذا القول بين الهزل والتاريخ .

الفصل الثانى

فيثاغورس الكروتونى

كان عمر كروتونا أطول من عمر سيبارس ؛ فقد أنشئت فى عام ٧١٠ ق . م ولا تزال حتى الآن تعج بالصناعة والتجارة بعد أن تغير اسمها إلى كروتون . وقد كان مرفؤها المرفأ الطبيعى الوحيد بين تاراس وصقلية ، ولم تكن تعفو عن السفن التى تفرغ بضائعها فى سيبارس . وقد بقى فيها من التجارة ما يكفى لكى يعيش أهلها عيشة هنيئة لينة ، كما أن هزيمتهم الموفقة فى الحرب ، وكساد تجارتهم زمناً طويلا ، وجو بلادهم المنعش ، ومزاجهم الدورى المتزمت بعض الشىء ، كل هذه الظروف مجتمعة قد جعلتهم يحتفظون بنشاطهم وقوتهم رغم ثرائهم العظيم . وفى هذه المدينة نشأ الرياضيون المشهورون أمثال ميلو Milo ، كما نشأت أعظم مدرسة طبية فى بلاد اليونان الكبرى (Magna Greca)(*) .

ولعل اشتهار كروتونا بأنها ملجأ صحى هو الذى حبب إلى فيثاغورس المجىء إليها . ومعنى فيثاغورس هو « الناطق الفيثى » بلسان مهبط الوحى فى دلفى ، وكان كثيرون من أتباعه يرون أنه هو أبلو نفسه ، ويدعى بعضهم أنه أبصر وميض فخذه الذهبية(١٧) . وتقول الروايات المتواترة إنه ولد فى ساموس حوالى عام ٥٨٠ ، وتتحدث عن جده فى صباه . وتعزو إليه أنه صرف ثلاثين عاماً فى الأسفار . ويقول عنه هرقليطس ، وهو الرجل الشديد الاقتصاد فى مدحه إن « فيثاغورس كان أكثر الباحثين مثابرة(١٨) » . ويروى عنه أنه زار بلاد العرب ، وسوريا ، وفينيقية ، وكلديا ، والهند ، وغالة ، وعاد يلقى على الرجالة حكمة عالية جديرة بالإعجاب هى قوله : إذا كنت مسافراً فى خارج بلادك فلا

(*) هذا هو الاسم الذى كان الرومان يطلقونه على المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا . (المترجم)

تلتفت وراءك إلى حدودها[١٩] » ، ويجب أن تكبح جماح نزواتك عند كل ثغر تدخل فيه . وما من شك فى أنه زار مصر حيث درس مع الكهنة ، وتعلم الكثير من علم الفلك والهندسة النظرية ، وربما تعلم أيضاً قليلا من السخف[٢٠] . ولما عاد إلى ساموس ووجد أن طغيان پوليكراتيز يحد من طغيانه هو هجرها إلى كروتونا وكان قد جاوز الخمسين من العمر[٢١].

وهنا اشتغل بالتدريس ، وكانت هيبته ، وغزارة علمه ، واستعداده لقبول النساء والرجال فى مدرسته ، سبباً فى إقبال الناس عليها حتى بلغ عدد من فيها بضع مئين فى زمن قصير . وقد قال بمبدأ تكافؤ الفرص للذكور والإناث على السواء قبل أن ينادى بذلك أفلاطون بمائتى عام ، ولم يناد به فحسب بل نفذه عملياً . على أنه مع ذلك لم يكن ينكر أن بين الجنسين فوارق طبيعية من حيث وظائف كل منهما . وكان يعلم تلميذاته الشىء الكثير من الفلسفة والآداب ، ولكنه كان يعلمهن أيضاً فن الأمومة والتدبير المنزلى ، ومن أجل ذلك اشتهرت النساء الفيثاغوريات فى الزمن القديم بأنهن « أعلى نموذج فى الأنوثة أخرجته بلاد اليونان فى جميع العصور » .

وقد وضع فيثاغورس لطلابه بصفة عامة قواعد تكاد تحول مدرسته إلى دير للراهبات . فقد كان من يدخلونها يقسمون يمين الولاء للأستاذ ولبعضهم بعضاً . وتجمع الروايات المأثورة على أنهم كانوا يشتركون على قدم المساواة فى جميع طيبات الحياة ما داموا يعيشون فى هذه الجماعة الفيثاغورية[٢٢] . وكان اللحم والسمك والفول محرمة عليهم ، أما الخمر فلم تكن محرمة ؛ ولكنه كان يوصيهم بشرب الماء ، وتلك وصية شديدة الخطورة فى جنوبى إيطاليا فى هذه الأيام . وربما كان تحريم اللحم لسبب دينى ذى صلة بعقيدة تقمص الأرواح ، فإن على الناس أن يحذروا أن يأكلوا أجدادهم . والراجح أنه كان يباح للطلاب أن يخرجوا على حرفية هذه القواعد من حين إلى حين . ويرى المؤرخون الإنجليز

بنوع خاص أن من غير المعقول أن يصبح المصارع ميلو الفيثاغورى أقوى رجل فى بلاد اليونان كلها دون أن يأكل لحم العجول[٢٤] ، — وإن كان العجل الذى أصبح بين ذراعيه ثوراً (*) قد شب على أكل الكلأ . وكان يحرم على أفراد هذه الجماعة أن يقتلوا أى حيوان لا يؤذى الإنسان أو أن يتلفوا شجرة مزروعة . وكان يطلب إليهم أن يلبسوا الثياب البسيطة وأن يطرحوا الكبرياء ، وألا « يندفعوا فى الضحك ، وألا يكونوا مع ذلك عابسين » . ولم يكن يباح لهم أن يقسموا بالآلهة لأن « من الواجب على كل إنسان أن يعيش عيشة تجعله خليقاً بأن يصدقه الناس دون أن يلجأ إلى القسم » . وكان محرماً عليهم أن يقدموا الضحايا قرباناً ، وكان فى وسعهم أن يتعبدوا أمام المذابح التى لم تلوثها الدماء . وكان عليهم أن يسألوا أنفسهم فى آخر كل يوم عما ارتكبوه من الذنوب ، وعما أهملوه من الواجبات ، وعما فعلوه من الخير[٢٥] .

وقد أخذ فيثاغورس نفسه بهذه القواعد وراعاها أشد مما راعاها أى تلميذ من تلاميذه اللهم إلا إن كان هو ممثلا من أبرع الممثلين . وما من شك فى أن أسلوب حياته قد أكسبه من احترام طلابه وسلطانه عليهم ما جعلهم كلهم يتحملون طغيانه بلا تذمر ، وما جعل الكلمة الفاصلة فى كل جدال أو نظرية هى : لقد قالها هو نفسه Autos epha-ipsi dixit » . وقد نقل إلينا فى عبارة تنم عن التعظيم وتستثير الإعجاب أن المعلم نفسه لم يشرب الخمر بالنهار أبداً ، وأنه كان يعيش معظم أيامه على الخبز والعسل ، وأن حلواه كانت هى الخضر ، وأن ثوبه كان على الدوام ناصع البياض ؛ وأنه لم يُعرف عنه قط أنه أفرط فى الأكل ، أو عشق ، وأنه لم يغرق فى الضحك ، أو المزاح ، أو القصص ، ولم يعاقب إنساناً مطلقاً ولو كان عبداً[٢٦] . وكان تيمن الأثينى يظنه « مشعوذاً يخادع بقول الجد ، ويعمل على اصطياد الناس[٢٧] » ، وينقض هذا القول أن زوجته ثيانو Theano وابنته

(*) انظر الفصل الرابع من الباب التاسع من هذا الكتاب .

دامو Damo كانتا ن أشد أتباعه إخلاصاً له ، وقد كان فى وسعهما أن توازنا بين فلسفته وحياته . ويقول ديوچنيز لبرتس إنه « عهد بتعليقاته إلى دامو وأمرها ألا تذيعها لأى إنسان فى خارج البيت ، وإنها لم تفرط قط فى أحاديثه مع أنه كان فى وسعها أن تبيعها بالمال الكثير ، لأنها كانت ترى أن طاعة أوامر والدها أثمن من الذهب ، ويزيد فى فضلها أنها امرأة[٢٨] » .

وكان الانضمام إلى المجتمع الفيثاغورى يتطلب ، فضلا عن تطهير احسم بالعفة وكبح الشهوات ، تطهير العقل بدراسة العلم . وكان ينتظر من الطالب الجديد أن يلتزم « الصمت الفيثاغورى » مدى خمس سنين — ولعل المقصود بالصمت الفيثاغورى أن يتقبل الأوامر من غير سؤال أو مناقشة — قبل أن يعترف به عضواً كاملا فى الجماعة ، وقبل أن يسمح له بأن « يرى » فيثاغورس[٢٩] أى أن يدرس عليه . وتنفيذاً لهذا النظام كان التلاميذ يقسمون إلى طلاب خارجيين وطلاب داخليين ، وكان الداخليون هم الذين يحق لهم أن يعرفوا الحكمة السرية للمعلم نفسه . وكان منهج الدراسة يتألف من أربعة موضوعات : الهندسة النظرية ، والحساب ، والفلك ، والموسيقى . وكان يبدأ بالرياضيات(*) ؛ ولكنها لم تكن العلم العملى الذى استحالت إليه على أيدى المصريين القدامى ، بل كانت علماً مجرداً نظرياً يبحث فى الكميات ، ومثلا أعلى فى التدريب المنطقى يجعل التفكير منظماً واضحاً بعرضه على محك الاستدلال الصارم والبرهان الواضح الملموس . وأضحت الهندسة النظرية من ذلك الوقت مجموعة من البدهيات ، والنظريات ، والبراهين . وكانت كل خطوة فى القضايا المنطقية المتتالية ترفع الطالب إلى مستوى أعلى من مستواه السابق — على حد قول الفيثاغوريين — يستطيع منه أن يطلع أكثر من ذى قبل على بناء العالم[٣١] . وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن

(*) ويلوح أن الفيثاغوريين كانوا أول من استعمل كلمة ماتماطيقا Mathematike ، بمعنى الرياضيات ، فقد كانت قبل أيامهم تستخدم للدلالة على تعلم أى شئ[٣٠] مهما يكن نوعه !

فيثاغورس نفسه كشف كثيراً من النظريات الهندسية : وأهمها كلها أن مجموع الزوايا الداخلة فى أى مثلث يساوى قائمتين ، وأن المربع المقام على الضلع المقابل للزاوية القائمة فى المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المقامين على الضلعين الآخرين . ويقول أپلودورس Appollodorus إنه لما كشف المعلم هذه النظرية ضحى بمائة ذبيحة شكراً على هذا الكشف العظيم[٣٢] . فإن كان قد فعل ذلك حقاً فقد ناقض المبادئ الفيثاغورية مناقضة يندى لها الجبين . وانتقل فيثاغورس من الهندسة إلى الحساب — على عكس النظام المتبع فى هذه الأيام . ولم يكن يقصد بالحساب وقتئذ أن يكون فناً عملياً للتعـــداد والإحصاء ، بل كان نظرية مجردة للأعداد . ويلوح أن المدرسة الفيثاغورية هى أول من قسم الأعداد إلى فردية وزوجية ، وإلى أعداد صماء وأخرى قابلة للقسمة[٣٣] ، وقد صاغت نظرية النسبة ، واستطاعت بها و « بتطبيق المساحات » أن توجد الجبر الهندسى[٣٤] . ولعل دراسة النسبة هى التى أمكنت الفيثاغوريين من أن يحولوا الموسيقى إلى أعداد . ويروى أن فيثاغورس كان فى يوم من الأيام ماراً بحانوت حداد ، فاسترعت سمعه الفترات الصوتية الخارجة من ضربات السندان ، والتى بدت له كأنها فترات موسيقية منتظمة . ولمـــا عرف أن المطارق ذات أوزان مختلفة استنتج من ذلك أن النغمات تتوقف على نسب عددية . وتقول إحدى التجارب القلائل التى سمعنا بها فى علوم القدماء إنه أتى بوترين متساويين فى السمك وفى التوتر ، وتبين له أنه إذا كان طول أحدهما ضعفى طول الآخر أخرجا إذا جذبهما نغمة من الدرجة الأولى ؛ وإذا كان أحدهما قدر الآخر مرة ونصف مرة أخرجا خُمساً (دو — صول) ؛ وإذا كان أحدهما قدر الآخر مرة وثلث مرة ، أخرجا رُبعاً (دو ، فا[٣٥]) ؛ وبهذه الطريقة يمكن أن تقدر كل نغمة موسيقية تقديراً رياضياً ، وأن يعبر عنها تعبيراً رياضياً كذلك . وإذ كانت كل الأجسام التى تتحرك فى الفضاء تخرج أصواتاً ، تتوقف درجة ارتفاعها على حجم الجسم وسرعة

حركته ، فإن كل كوكب فى فلكه حول الأرض (كما يقول فيثاغورس) يحدث صوتاً يتناسب مع سرعة انتقاله ، وهذا الصوت يعلو أيضاً كلما بعد الكوكب عن الأرض ؛ ويتكون من هذه النغمات المختلفة ائتلاف فى الأصوات أو « موسيقى الأفلاك » وهى موسيقى لا نسمعها قط لأننا نسمعها على الدوام[٣٦] .

ويقول فيثاغورس إن العالم جرم كرى حىٌّ مركزه الأرض ، وإن الأرض هى الأخرى جرم كرى تدور ، كما تدور الكواكب ، من الغرب إلى الشرق . وقد قسم الأرض ، والعالم كله فى الحقيقة ، خمس مناطق — المنطقة الباردة الشمالية ، والباردة الجنوبية ، ومنطقة الصيف ، ومنطقة الشتاء ، والمنطقة الاستوائية ، وقال إن الجزء الذى نراه من القمر يكبر حجمه أو يصغر تبعاً للزاوية التى يواجه بها الأرضَ نصفُه المتجه نحو الشمس ، وإن خسوف القمر ينشأ من وجود الأرض أو أى جرم آخر بينه وبين الشمس[٣٧] . ويقول ديوچنيز ليرتس إن فيثاغورس كان أول من قال إن الأرض مستديرة ، وأول من سمى العالم كونا Kosmos »[٣٨] .

وقد عمل فيثاغورس بفضل بحوثه فى الرياضيات والفلك أكثر مما عمله أى عالم آخر لوضع أسس العلوم الطبيعية فى أوربا ، ولما أن تم له ذلك انتقل إلى الفلسفة . ويبدو أن لفظ الفلسفة نفسه من وضعه هو . وقد رفض أن يستخدم كلمة سوفيا Sophia أى الحكمة لأنها ادعاء عريض لا يرضاه ، ووصف سعيه لإدراك الحقائق بأنها فلسفة Philosophia أى محبة الحكمة[٣٩] . وقد صارت كلمتا فيلسوف وفيثاغورى فى القرن السادس كلمتين مترادفتين[٤٠] . وبينما كان طاليس وغيره من الميليتيين يبحثون عن أصل الأشياء جميعها فى المادة ، كان فيثاغورس يبحث عنه فى الشكل ، وبعد أن كشف ما فى الموسيقى من علاقات ونتائج متتالية عددية منتظمة ، وبعد أن افترض وجود هذه العلاقات والنتائج المتتالية فى الكواكب نفسها ، قفز قفزة الفلاسفة نحو الوحدة ، وأعلن أن هذه العلاقات والنتائج المتتالية العددية المنتظمة توجد فى كل مكان ، وأن العامل الجوهرى

الأساسى فى كل شىء هو العدد . وكما أن اسپنوزا قد قال فيما بعد(*) إن ثمة عالمين — أحدهما عالَم الأشياء أو عالَم الناس الذى يدركونه بالحواس والآخر عالم الفلاسفة ، أو عالم القوانين والثوابت الذى يدركه العقل — وإن العالم الثانى وحده هو العالم الحقيقى الدائم ، كذلك شعر فيثاغورس أن النواحى الأساسية الخالدة لأى شىء هى ما بين أجزائه من علاقة عددية(**) ، ولعله كان يرى أيضاً أن الصحة نفسها علاقة رياضية أو نسبة صالحة بين أجزاء الجسم أو عناصره ؛ أو أن النفس كانت هى الأخرى عدداً . وعند هذه النقطة انطلقت صوفية فيثاغورس التى استقاها من مصر وبلاد الشرق الأدنى حرة لا تلوى على شىء . فقال إن النفس تنقسم أقساماً ثلاثة : الشعور واللقانة والعقل ؛ فالشعور مركزه القلب ، واللقانة والعقل مركزهما المخ ؛ وإن الشعور واللقانة من صفات الحيوان والإنسان على السواء(†) ، أما العقل فيختص به الإنسان وحده ، وهو خالد لا يفنى(٤٢) . وتمر النفس بعد الموت بفترة من التطهير فى الجحيم Hades ، تعود بعدها إلى الأرض وتدخل فى جسم جديد ، ثم فى جسم آخر ، وتمر فى سلسلة من التناسخ لا تنتهى إلا إذا كان صاحبها قد حَيِى حياة فاضلة منزهة عن الرذائل بأجمعها .

وكان فيثاغورس يدخل السرور على أتباعه ، أو لعله كان يقوى عقيدتهم ، بقوله لهم إن روحه قد تقمصت مرة جسم عاهر ، ومرة أخرى جسم البطل يوفوربوس

(*) فى مقاله عن « تحسين العقل » .

(**) يحاول العلم أن يرجع الظواهر كلها إلى تقديرات كمية رياضية قابلة للتحقيق . والكيمياء تتحدث عن الأشياء بلغة الرموز والأرقام ، وترتب العناصر ترتيباً رياضياً فى قوانين دورية ، وترجعها إلى حساب ذرى داخلى من الكهارب ؛ وعلم الفلك رياضيات سماوية ، وعلماء الطبيعة يجدون فى البحث عن قانون رياضى ينطبق على الكهرباء ، والمغنطيسية ، والجاذبية ؛ ولقد حاول بعض مفكرى هذه الأيام أن يعبروا عن الفلسفة نفسها فى صورة رياضية .

(†) ومن واجبنا أن نلاحظ فى هذه المقام أن فيثاغورس قد سبق باستير بعض السبق فى إنكاره التوالد التلقائى ، وقال إن الحيوانات كلها تولد من حيوانات أخرى عن طريق « البذور » أو « الأصول » .

Euphorbus ؛ وإنه يذكر بوضوح مغامراته فى حصار طروادة ، وإنه قد تعرف فى هيكلها فى أرجوس على الدرع الذى كان يلبسه فى تلك الحياة القديمة[٤٣] . وسمع مرة عواء كلب مضروب فقام من فوره لإنقاذه ، وقال إنه قد عرف فى عوائه صوت صديق له ميت[٤٤] . وفى وسعنا أن نتبين شيئاً من الصلات الفكرية التى كانت تربط بلاد اليونان وأفريقية وآسية فى القرن السادس ، إذا ذكرنا أن فكرة التناسخ هذه كانت مستحوذة فى وقت واحد على خيال الهنود وعلى طقوس أورفيوس فى بلاد اليونان وعلى إحدى الطوائف الفلسفية فى إيطاليا .

ونحن نستشف نزعة التشاؤم الهندية تمتزج فى فلسفة فيثاغورس الأخلاقية بروح أفلاطون النيرة الصافية . والقصد من الحياة فى النظام الفيثاغورى أن تخلص من التقمص ، والسبيل إلى ذلك هى الفضيلة ، والفضيلة هى ائتلاف الروح مع نفسها ومع الله . ومن المستطاع كسب هذا التآلف بطريقة اصطناعية . وكان الفيثاغوريون يستخدمون الموسيقى كما كان يستخدمها كهنة اليونان وأطباؤهم لشفاء الاضطرابات العصبية . وكانوا يعتقدون أن أكثر ما تحصل به النفس على التآلف هو الحكمة ، وهى فهم الحقائق التى يقوم عليها هذا التآلف فهما هادئا ؛ وذلك لأن هذه الحكمة تعلم الإنسان التواضع والاعتدال ، والطريقة الوسطى الذهبية . أما الطريقة المضادة لهذه — أى طريقة التنازع والتطرف ، والخطيئة — فتؤدى حتما إلى المآسى والعقاب والعدالة « عـــدد مربع » ، وكل خطأ « سيربع » إن عاجلا أو آجلا بالعقوبة المكافئة له[٤٥] . هذا هو جوهر فلسفة أفلاطون وأرسطو الأخلاقية .

أما سياسة فيثاغورس فهى فلسفة أفلاطون حققها من قبل أن يدركها . ولقد كانت مدرسة فيثاغورس ، حسب ما نفهمه من الروايات القديمة المتواترة ، أرستقراطية شيوعية : تطلب إلى الرجال والنساء أن يجمعوا كل ما لديهم من الطيبات ، وأن يتعلموا مجتمعين ، وأن يدربوا على الفضيلة والتفكير الراقى بطريق

العلوم الرياضية والموسيقى ، والفلسفة ، وأن يتقدموا من تلقاء أنفسهم ليكونوا حكام الدولة الحارسين لها . والحق أن الجهد الذى كان يبذله فيثاغورس ليجعل مجتمعه هو نفسه حكومة مدينته العقلية ، هو الذى أهلكه وأهلك أتباعه . فقد اندفع المبتدئون من أتباعه فى تيار السياسة . وانحازوا إلى جانب الأشراف انحيازاً أثار عليهم حزب الشعب فى كروتونا ، فاندفع أفراده فى ثورات غضبهم ، وأحرقوا البيت الذى كان الفيثاغوريون مجتمعين منه ، وقتلوا طائفة منهم ، وأخرجوا الباقين من المدينة . وتقول إحدى الروايات إن فيثاغورس نفسه قد قبض عليه وقتل حين أبى فى فراره أن يطأ بقدميه حقلا من الفول ؛ وتقول رواية أخرى إنه فر إلى متابنتم Metapontum حيث امتنع عن الطعام أربعين يوماً — ولعله كان يحس أنه يجب أن يكتفى من العمر بثمانين عاماً — وأمات نفسه جوعاً[٤٦] .

أما أثره فهو أثر خالد على مدى الأيام ؛ ولا يزال اسمه حتى اليوم طناناً رناناً ؛ كما عاش مجتمعه ثلثمائة عام فى صورة جماعات منتشرة فى بلاد اليونان ، يخرج منها علماء طبيعيون أمثال فيلولوس Philolaus الطبيب ، وحكام أمثال أركيتاس Archytas طاغية تاتاس Tatas وصديق أفلاطون . ولقد كان وردسورث Wordsworth فى أشهر قصائده كلها فيثاغوريا من غير أن يشعر . وكان أفلاطون نفسه يهيم بصورة فيثاغورس الغامضة ؛ وهو يأخذ عنه فى جميع نواحى نشاط الذهنى — فى سخريته من الدمقراطية ، وفى تلهفه على وجود أرستقراطية شيوعية من الحكام الفلاسفة ، وفى اعتقاده أن الفضيلة تآلف ، وفى نظرياته عن الطبيعة والنفس ، وفى شغفه بالهندسة ، وفى إيمانه بقوة الأعداد الخفية . وقصارى القول أن فيثاغورس — على قدر ما وصل إليه علمنا — هو واضع أساس العلوم الطبيعية والفلسفة فى أوربا ؛ وذلك عمل يكفى لتخليد اسم أى إنسان .

الفصل الثالث

زنوفانيز الإيلائى

فى غرب كروتونا مكانُ لكرى Locri القديمة ، ويقول أرسطو إن هذه المستعمرة قد أسسها العبيد والزانون واللصوص الفارون من بلدة لكرى فى أرض اليونان القارية ؛ ولكن لعل الذى أنطق أرسطو بهذا القول هو احتقار العالم القديم للجديد . وساد بين المستعمرين الاضطراب الناشئ من أصلهم الأول ، فلجأوا إلى مهبط الوحى فى دلفى يطلبون النصيحة فقيل لهم إن عليهم أن يسنوا لأنفسهم قوانين . وربما كان زلوكوس هو الذى أنطق الوحى بما نطق به ، لأنه وضع للكرى فى عام ٦٦٤ قوانين قال إن أثينة أملتها عليه فى المنام . وكانت هذه أول قوانين مكتوبة فى بلاد اليونان كلها ، وإن لم تكن أولى القوانين التى هبطت من عند الآلهة . وبلغ من حب اللكريين إياها أن حتموا على كل من يريد أن يقترح قانوناً جديداً أن يتكلم وفى جيده حبل ، حتى إذا رفض اقتراحه شنقوه بأقل كلفة من الأموال العامة(*)(٧١) .

وبعد أن يطوف المسافر حول إصبع قدم إيطاليا ويتجه نحو الشمال يصل إلى رجيو Reggio ، وكانت مدينة مزدهرة أسسها أهل مسينا حوالى عام ٧٣٠ ق . م وسموها رجيون Rhegion وعرفها الرومان باسم رجيوم Rhegium ، فإذا اجتاز مضيق مسينا — ولعله هو الذى سمته الأوديسة « سلا وكربديس » Scylla and Charybdis — وصل إلى المكان الذى وقف فيه لوس Laus ؛

(*) كان اليونان مولعين بهذه الطرافة ولعاً حملهم على أن يذكروها أيضاً عن قوانين كتانا Catana وثوريای Thurii ، وشغف ميشيل ده منتانى Michel de Montaigne بهذه الخطة ، ولعلها لم تبق بعد أن استنفدت غرضها .

ثم جاء بعدئذ إلى هيلى[١٤] Hyele القديمة وهى ڤليا Velia الرومانية ، المعروفة فى التاريخ باسم إليا Elea لأن أفلاطون كتبها بهذه الصورة ، ولأن فلاسفتها وحدهم هم الذين بقى ذكرهم . وهنا جاء زنوفانيز الكلوفونى حوالى ٥١٠ وأنشأ المدرسة الإليائية .

وكان ذا شخصية فذة لا تقل فى ذلك عن عدوه فيثاغورس المحبوب من أهل بلده . ذلك أنه كان جم النشاط لا يكل من العمل ، مبتكراً لا يهاب الابتداع ، ظل ستة وسبعين عاماً — على حد قوله هو نفسه — يطوف « فى أرض هيلاس من أقصاها إلى أقصاها » يجمع منها مشاهداته ويخلق لنفسه فيها أعداء أينما حل . وكان يكتب قصائد فلسفية ويتلوها على الناس ، ويندد بهومر ويعيب عليه سفاهته وعدم تقواه ، ويسخر من الخرافات ؛ وقد أنشأ ميناء فى إليا وأتم من العمر قرناً كاملا قبل أن يموت[٢٩] . ومن أقواله أن هومر وهزيود « يعزوان إلى الآلهة كل الأعمال التى تحط من قدر الآدميين وتجللهم بالعار — . كالتلصص ، والزنا والغش[٥٠] . ولكنه هو لم يبلغ شأوا بعيداً فى التقى والصلاح كما يدل على ذلك قوله :

« لم يوجد فى العالم كله ، ولن يوجد فيه ، رجل ذو علم أكيد عن الآلهة . . . فالآدميون يتصورون أن الآلهة يولدون ، ويلبسون الثياب ، وأن لهم أصواتاً وصوراً كأصوات الآدميين وصورهم . ولو كان للثيران والآساد أيد مثلنا ، وكان فى وسعها أن ترسم وتصنع صوراً كما يفعل الآدميون ، لرسمت لآلهتها صوراً وصنعت لها تماثيل على صورتها هى ؛ ولو استطاعت الخيل لصورت آلهتها فى صورتها ، ولصورت الثيران آلهتها فى صورة الثيران . والأحباش يصورون آلهتهم سوداً فطس الأنوف ؛ والتراقيون يصورون آلهتهم زرق العيون حمر الشعر . . . ألا إن ثمة إلهاً واحداً يعلو على الآلهة والبشر ؛ لا يشبه الآدميين فى صورته ولا فى عقله .

فهو كله يرى ، وكله يفكر ، وكله يسمع . وهو يسيطر من غير نصب على الأشياء كلها بقوة عقله[٥١] .

ويقول ديوچنيز ليرتس[٥٢] إن زنوفانيز قد وحد بين هـذا الإله والكون . وكان هذا الفيلسوف يعلم الناس أن الأشياء كلها ، بل والناس أيضاً ، مخلوقون من الطين والماء حسب قوانين طبيعية[٥٣] ، وأن الماء كان فى يوم من الأيام يغطى الأرض بأجمعها لأنا نرى الحفريات البحرية فى الأرض بعيدة عن شواطئ البحار وعلى رؤوس الجبال ، وأكبر الظن أن الماء سيغطى الأرض كلها يوماً ما فى المستقبل[٥٤]. بيد أن كل ما يحدث فى التاريخ من تغير ، وكل ما يحدث فى الأشياء من فرقة وانقسام ، ليس إلا ظواهر سطحية ، وأن من تحت هذا الزحام ومن وراء ذلك الاختلاف فى الصور والأشكال وحدة لا تتبدل أبداً هى حقيقة العلم الباطنة الداخلية .

ومن هذه البداية سار پرمنيدس الإيلياتى تلميذ زنوفانيز إلى الفلسفة المثالية التى كان لها أكبر الأثر فى تشكيل تفكير أفلاطون والأفلاطونيين طوال العصر القديم ، وتفكير أوربا الذى دام إلى يومنا هذا .

الفصل الرابع

من إيطاليا إلى أسبانيا

على بعد عشرين ميلا إلى شمال إليا كانت تقوم مدينة پسدونيا - پستم Paestum الرومانية - التى أنشأها مستعمرون من سيباريس لتكون آخر محطة برية إيطالية لتجارة ميليتس . وفى وسع الإنسان أن يصل إليها اليوم بعد سفرة لطيفة من ناپلى مخترقاً سالرنو Salerno ، وتظهر أمامه على حين غفلة ، على جانب الطريق ، وسط حقل مهجور ، ثلاثة تماثيل ، عظيمة حتى فى عزلتها . فلقد سد النهر فى هذا المكان مصبه بما يحمله من الغرين طوال القرون الماضية ، فاستحال هذا الوادى الذى كان من قبل وادياً صحياً طيباً مناقع ضارة بالصحة ؛ وحتى الأقوام الذين يحرثون سفوح جبل ڤيزوف ، والذين لا يبالون بما يصيبهم فى سبيل ذلك من أذى ، حتى هؤلاء قد فروا يائسين من هذه السهول الموبوءة بالملاريا . وقد أبقى الزمان على أجزاء من الجدران القديمة ، وأبقى كذلك بحالة أجود من حالة هذه الجدران - وكأن العزلة كانت من أسباب هذا البقاء - على الأضرحة التى شادها اليونان من حجر الجير المتوسط الصلابة ، ولكنها كاملة لم تكد تنال منها يد الزمان شيئاً . وقد أقام اليونان هذه الأضرحة لآلهة الحب والبحر وأغلب الظن أن أقدم هذه المبانى ، وهو البناء الذى سمى فيما بعد « الباسلكا Basilika » ، كان هيكلا لپوسيدن . وقد شاهده له الأقوام الذين يعتمدون فى طعامهم على فاكهة البحر المتوسط وتجارته حوالى منتصف هذا القرن السادس العجيب ، الذى خلق كل عظيم فى الفن والأدب والفلسفة بين إيطاليا وشانتنج Shantung . وقد بقيت من هذا الهيكل أعمدته الداخلية والخارجية شاهدة على شغف اليونان بإقامة العمد . وأقام الجيل الذى تلاه

هيكلا أصغر من هذا الهيكل شبهاً به فى بساطته وقوته الدوريتين . ونحن نسميه « هيكل سيريز Ceres » ولكنا لا نعرف أى الآلهة كان يشم رائحة قرابينه . وشاد جيل بعد هذا الجيل أيضاً ؛ قبيل الحرب الفارسية أو بعيدها[٥٤] ؛ أعظم الهياكل الثلاثة وأحسنها تناسباً ؛ وأكبر الظن أنه شيد لپوسيدن أيضاً — وهو من أجدر الهياكل بهذا الإله لأن فى وسع الإنسان أن يطل من أروقته على صفحة البحر الغدار الذى يغرى المطل عليه بركوبه . وأينما ولى الإنسان وجهه فى هذا الهيكل رأى عمداً : فى الخارج رواق دورى قوى كامل البناء ، وفى الداخل رواق من العمد ذو طابقين كان يحمل أعلاها فيما مضى سقفاً . وذلك منظر من أعظم المناظر الإيطالية تأثيراً فى النفس ؛ ولا يكاد الإنسان يصدق أن هذا الهيكل التى احتفظ بكيانه أحسن مما احتفظ به أى هيكل شاده الرومان ، كان من عمل اليونان قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون لا تكاد تنقص شيئاً . وفى وسعنا أن نستدل منه على ما كان للأقوام الذين شادوا أمثال هذا المركز لحياتهم الدينية من حيوية وولع بالجمال ، وما كانوا يستمتعون به من موارد ثراء ومن حسن ذوق . وفى وسعنا أن نتصور من بعد هذا صورة وواضحة جلية لما كانت عليه المدن الكبرى مثل ميليتس ، وساموس ، وإفسوس ، وكروتونا ، وسيباريس وسرقوسة من أبهة وثراء .

وعلى مسافة قليلة من الموضع الذى تقوم عليه نابلى الحديثة ، وإلى شمالها ، أقام بعض المغامرين من كولسيس ، وإرتريا ، وكيمى Cyme العوية ، وجرايا Graia ، حوالى عام ٧٥٠ ثغر كومية العظيم أقدم المدائن اليونانية فى غرب بلادهم ، وسرعان ما أثرت كومية من استيرادها غلات بلاد اليونان الشرقية وبيعها فى أواسط إيطاليا ، وأعانها ذلك على استعمار رجيوم والسيطرة عليها ، كما سيطرت على مضيق مسينا وحرمت عبوره على سفن المدائن التى لم تعقد معها حلفاً تجاريا أو سمحت لها بالمرور بعد أداء رسوم باهظة فرضتها عليها[٥٦] . وانتشر الكوميون

جنوباً وأسسوا دسيآركيا Dicaearchia — وهى التى أصبحت فيما بعد ثغر پتيولى Puteoli (پتسيولى Pozzuoli) الرومانى — ونيپوليس Neapolis أو المدينة الجديدة وهى مدينة ناپلى الحالية . ومن هذه المستعمرات انتقلت الأفكار اليونانية كما انتقلت المتاجر اليونانية إلى مدينة رومة الناشئة التى لم يكن لها وقتئذ شأن كبير بين المدن ، كما انتقلت شمالا إلى إترووريا . واختار الرومان من كومية عدداً من الآلهة اليونانية — وبخاصة أپلو ، وهرقليز ، وابتاعوا الملفات التى تنبأت فيها سيبيل الكومية — كاهنة أپلو العجوز — بمستقبل رومة بأكثر مما تستحقه من الثمن .

وقبل أوائل القرن السادس بقليل نزل فوقيُّو أيونيا على سواحل فرنسا الجنوبية وأسسوا مساليا (مرسيليا) ، ونقلوا غلات بلاد اليونان فى نهر الرون وروافده حتى أرليس Arles ونيمز Nimes . واتخذوا من الأهلين أصدقاء وأزواجاً ، وأدخلوا زراعة الزيتون والكروم هدية منهم إلى فرنسا ، كما أدخلوا الحضارة اليونانية إلى غالة الجنوبية ، ونشروها بين ربوعها إلى حد يسر لرومة فيما بعد أن تنشر فيها هى الأخرى فى أيام قيصر حضارتها الوثيقة الصلة بالحضارة اليونانية . وأسس الفوقيون فى اتجاه الشرق على طول الساحل مدن أنتپوليس Antipolis (أنتيب Antipes الحديثة) ، ونيسية Nicaea (نيس الحالية) ومنوكوس Monoecus (موناكو) . أما فى الغرب فقد وصلوا إلى أسبانيا وأسسوا مدينة رودية Rhodae (روساس Rosas) وإمپورييوم (أمپورياس) وهمروسكوبيوم Hemoroscopium وميناكا Maenaca بالقرب من مالقة Malaga ، وأثرى اليونان فى أسپانيا وقتاً باستغلالهم مناجم الفضة فى تارتسوس Tartessus ؛ ولكن القرطاجيين والإترووريين تألبوا عليهم فى عام ٥٣٥ ودمروا الأسطول الفوقى ، ومن ذلك الوقت أخذت قوة اليونان فى غرب البحر المتوسط تتضاءل ولم تقم لهم فيه بعدئذ قائمة .

الفصل الخامس

صقلية

لقد تركنا إلى آخر المطاف ، أو على الأصح إلى قبيل آخره ، أغنى الأصقاع التى استعمرها اليونان . ونقول أغناها لأن الطبيعة وهبت صقلية ما حرمت منه بلاد اليونان فى القارة الأوربية — ونعنى بذلك تربتها التى لا يكاد ينفد خصبها بفضل أمطارها وحمم بركانها — ، ولذلك كانت تنتج من القمح والحبوب الأخرى ما جعل أهلها يعتقدون أنها إن لم تكن مسقط رأس دمتر نفسها فلا أقل من أن تكون ملجأها المفضل المحبوب . لقد كان فيها بساتين وكروم ، وآجام من أشجار الزيتون مثقلة كلها بالثمار ؛ وكان فيها شهد لا يقل حلاوة ولذة عن جنى همتوس Hymettus ، وأزهار تتفتح طائفة بعد طائفة من بداية العام إلى نهايته . كان فيها سهول كلئة ترعى فيها الماشية والضأن ، وتنمو على منحدرات تلالها أشجار لا يحصها عد ، وسمك البحار المحيطة بها يتوالد وينمو أسرع مما يستطيع أهل صقلية أن يأكلوه .

وازدهرت فى هذه الجزيرة ثقافة من ثقافات العصر الحجرى الجديد فى الألف الثالث من السنين التى قبل ميلاد المسيح ، وأخرى من ثقافات العصر البرنزى فى الألف الثانى منها ؛ وحتى فى الأيام المينوية كانت التجارة الخارجية تربط الجزيرة بكريت وبلاد اليونان[٥٧] . وفى أواخر الألف الثانى من السنين تكسرت ثلاث أمواج من الهجرة على سواحل صقلية : وهى موجة السكانيين Sicans من أسپانيا ، وموجة الإليميين Elymi من آسية الصغرى ، وموجة الصقليين Sicels من إيطاليا[٥٨] . واستقر الفينيقيون حوالى عام ٨٠٠ ق . م فى متيا Motya وپنورموس Panormus (پالرمو) فى غربى الجزيرة . ثم تدفق

اليونان عليها من سنة ٧٣٥ وما بعدها(*) ، وسرعان ما أسسوا ناكسوس ، وسرقوسة ، وليونتيني Leontini ، ومسانا (مسينا) ، وقطانا Catana ، وچيلا ، وهميرا Himera ، وسلينس ، وأكروجاس . وكان أهل الجزيرة الأصليون فى جميع هذه الهجرات يُطردون من السواحل نحو الداخل بقوة السلاح . وقد انسحبت كثرتهم إلى الأصقاع الجبليـــة الداخلية تفلحها وتستغلها ، ومنهم أقلية أصبحت عبيداً للغزاة . وتزاوج عدد منهم مع الفاتحين بلغ من الكثرة حداً أصبح معه للدم والعادات والأخلاق اليونانية فى صقلية الغلبة على طباع الأهلين ، فاتصفوا بما كان يتصف به اليونان من ثورة عاطفية وانهماك فى العلاقات الجنسية(٥٩) . ولم يفتـــح اليونان الجزيرة فى وقت من الأوقات بالمعنى الصحيح للفظ الفتح ، بل بقى الفينيقيون والقرطاجنيون أصحاب السلطة العليا على ساحلها الغربى ، ودامت الحرب بينهم وبين اليونان خمسمائة عام ، رمزاً للكفاح بين اليونان والساميين ، وبين أوربا وأفريقية ، للاستيلاء على صقلية وبدأ هذا النزاع من جديد فى العصور الوسطى بين أهل الشمال (النورمان) والعرب بعد أن ظلت رومة مسيطرة على الجزيرة ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

وامتازت قطانا بشرائعها ، كما اشتهرت جـــزائر ليپارى Lipari بشيوعيتها ، وميرا بشاعرها سيجستا Segesta وسلينس وأكروجاس بهياكلهما ، وسرقوسة بقوتها وثرائها . وأضحت الشرائع التى سنها كارنداس Charondas لقطانا قبل صولون بجيل كامل أنموذجاً تحتذيه كثير من المدن فى صقلية وإيطاليا ، وكانت عاملا قوياً فى استتباب النظام العام وكبح الشهوات الجنسية فى مجتمعات لا تحميها التقاليد القديمة ولا السوابق المقدسة المرعية . ومن أقوال كارنداس فى هذا المعنى أن فى وسع الرجل أن يطلق زوجته ، كما أن فى مقـــدور الزوجة أن تطلق زوجها ، ولكن ينبغى للرجل ألا يتزوج أصغر من مطلقته كما أن عليها هى الأخرى

(*) أو لعل ذلك كان بعد جيل من ذلك الوقت . انظر هامش ص. ٢٩٠ .

ألا تتزوج برجل أصغر ممن طلقها[٦٠] وتروى قصة يونانية الطابع نصادفها كثيراً فى القصص اليونانى أن كرنداش حرم على المواطنين أن يدخلوا الجمعية مسلحين . على أنه حدث فى يوم من الأيام أن جاء هو إلى اجتماع عام يحمل سيفه سهواً منه ، ولما أن لامه أحد الناخبين على مخالفته لشريعته أجاب بقوله : « سأؤيد هذا القانون » ثم قتل نفسه[٦١] .

وإذا شئنا أن نتصور ما كان يكتنف الحياة من صعاب فى هـذه المستعمرات التى نشأت عن طريق الفتح العنيف ، فما علينا إلا أن نستعرض النزعة الشيوعية العجيبة التى كانت تسود جزائر ليبازى (أى المجيدة) الواقعة إلى الشمال من شرق صقلية . فقد أقام فيها حوالى عام ٥٨٠ ق . م جماعة من المغامرين جاءوا من نيدس Cnidus جنة القراصنة . وكان هؤلاء يهاجمون المتاجر المارة حول المضيق ، ويأتون بغنائمهم إلى أوكارهم فى الجزيرة ويقتسمونها فيما بينهم قسمات تعد مضرب المثل فى العدالة . وكانت الأرض ملكاً للأهلين مجتمعين ، يخصصون عدداً منهم لفلحها ، ويوزعون غلتها على المواطنين توزيعاً عادلا خالياً من الظلم والإجحاف . بيد أن النزعة الفردية عادت إلى الظهور على مدى الأيام ، فقسمت الأرض أقساماً امتلكها الأفراد ، وعادت تجرى فى مجراها المألوف خالية من المساواة ، مليئة بالتنافس والتطاحن

وعلى ساحل صقلية الشمالى كانت تقوم مدينة هيمارا ، وقد شاءت الأقدار أن تجعل منها بلاتية فى الغرب ، وفيها صاغ استسكورس Stecichorus « صانع الأناشيد الجماعية » خرافات بنى جنسه فى صورة أغان جماعية فى الوقت الذى أخذ فيه اليونان يملون الملاحم الطوال ؛ وحتى هلن وأخيل نفسهما لم ينجوا من هذا التجديد القصير الأجل بل اكتسيا على يديهما بهذا « الثواب الجديد » . وكأنما أراد استسيكوروس أن يسد الثغرة بين الملحمة الميتة ، والرواية القصصية المقبلة ، فألف قصصاً شعرية ؛ روى فى إحداها كيف ماتت فتاة طاهرة لأن من أحبته لم

بستجب لحبها ، وكان الأسلوب الذى روى به هذه القصة شبيهاً بأسلوب أغانى الحب البروڤنسالية Provençal فى فرنسا أو قصص العصر الڤكتورى فى إنجلترا . هذا إلى أنه قد مهد فى الوقت نفسه الطريق أمام ثيوقريطس Theocritus بأن كتب قصيدة فى حياة الرعاة روى فيها موت الراعى دفنيس Daphnis الذى كان حبه لكلو Chloe موضوع الروايات اليونانية فى العصر الرومانى . وقد كتب استسيكوروس نفسه رواية غرامية كانت بطلتها هلن نفسها . ولما فقد ستسيكوروس بصره اعتقد أن هذه الكارثة لم تحل به إلا لأنه نقل إلى الخلف قصة خيانة هلن ؛ وأراد أن يكفر لها عن ذنبه (لأنها أصبحت وقتئذ إلهة) فألف قصيدة أخرى أنكر فيها ما قاله فى أغنيته الأولى ، وأكد للعالم أن هلن اختطفت من بيتها قوة واقتدارا ، وأنها لم تسلم نفسها قط لباريس ؛ ولم تذهب إلى طروادة ، بل بقيت سالمة فى مصر حتى جاء منلوس لينقذها من محنتها . وقد حظر الشاعر فى شيخوخته هيمرا من سلطة فلارس Phalaris الأكرجاسى المطلقة(*) ، فلما أصم فلارس أذنيه عن سماع نصحه انتقل إلى قطانا ، حيث كان قبره الأثرى من المناظر الرائعة فى صقلية فى العصر الرومانى .

وإلى غرب هيمرا كانت سيجستا Segesta ، التى لم يبق منها إلا رواق ذو عمد دورية ناقصة تقوم الآن وسط ما يحيط بها من الأعشاب البرية . وإذا شئنا أن نتبين طراز فن العمارة الصقلية فى أحسن صوره ، كان علينا أن نخترق الجزيرة إلى الجنوب حيث كانت المدينتان العظيمتان سلينس وأكروجاس . فأما سلينس فقد شادت للآلهة الصامتة ، فى أثناء حياتها المحزنة منذ تأسيسها فى

(*) وقد صاغ هذا التحذير فى قالب خرافة فقال إن حصاناً قد ضايقه اقتحام وعل مرعاه ، فطلب إلى رجل أن يعينه على عقاب المعتدى ووعده الرجل أن يجيب طلبه إذا سمح له أن يركبه وحربته فى يده . فوافق الحصان على ذلك ، وهرب الوعل من المرعى خائفاً مذعوراً ، ولكن الحصان وجد أنه قد أصبح عبداً للرجل .

عام ٦٥١ إلى أن دمرها القرطاجنيون عام ٤٠٩ ، سبعة هياكل دورية الطراز ، ضخمة ولكنها تعوزها الدقة وحسن الصناعة ، يغطيها الجص المزين بالرسوم وعليها نقوش بارزة فجة . وقد دمر شيطان الزلازل هذه الهياكل فى وقت غير معروف ، ولم يبق منها سوى أعمدة محطمة وتيجان ملقاة على الأرض .

وأما أكروجاس — أجرجنتم الرومانية — فقد كانت فى القرن السادس أكبر مدائن صقلية وأعظمها ثروة . وفى وسعنا أن نتخيلها ممتدة من أرصفتها الشديدة الحركة ، إلى سوقها الصاخبة ، وإلى بيوتها القائمة على جانب التل ، ثم إلى قلعتها الحصينة الفخمة التى تكاد أضرحتها لعلوها الشاهق أن ترفع المتعبدين فيها إلى السماء . وفى هذه المدينة رضى الأشراف ملاك الأراضى أن يسلموا زمام الحكم إلى دكتاتورية تمثل الطبقة الوسطى بنوع خاص ، شأنها فى هذا شأن معظم المدن اليونانية . وفى عام ٥٧٠ اغتصب فلارس زمام الحكم ، وخلد اسمه على مر الأزمان بأن شوى أعداءه فى داخل ثور من النحاس الأصفر ؛ ولقد سره بنوع خاص أن استطاع صانعو هذا الثور أن يستحدثوا فيه طريقة تجعل عويل الضحايا يخرج من طائفة من الأنابيب كأنه خوار الثور نفسه[١٢] . لكنه رغم هذا كان هو وطاغية آخر من بعده يدعى ثيرون Theron الرجلين الذين تمتعت المدينة فى عهدها بالنظام السياسى والاستقرار ، وبفضلهما قطعت شوطا بعيداً فى سبيل تقدمها الاقتصادى ، حتى أصبح تجار أكروجاس كما أصبح تجار سلينس ، وكرتونا ، وسيبارس أصحاب الملايين فى تلك الأيام ، وكان ذوو المال الأقل منهم شأنا فى بلاد اليونان القديمة ، يحسدونهم شرا على ثرائهم العظيم ، وينتقمون لأنفسهم منهم بازدرائهم ، ويقولون إن الأثرياء الجدد مولعون بالضخامة والمظهر ، ولكنهم يعوزهم الذوق وجمال الفن . وما من شك فى أن هيكل زيوس فى أكروجاس كان يمتاز بضخامته ، فقد وصفه پوليبيوس بأنه «لا يعلو عليه هيكل آخر فى حجمه أو تصميمه»[٦٣] ؛ وليس فى مقدورنا أن نقدر ما كان عليه من

جمال ، لأن الحروب والزلازل دمرته تدميراً ، ثم سادت أكروجاس بعد جيل من ذلك الوقت ؛ أى فى عصر پركليز ، هياكل أخرى أقل من هذا حجماً . وقد بقى أحدها وهو هيكل الوفاق Concord بكامل أجزائه تقريباً ، كما بقى من هيكل هيرا طائفة من العمد تؤثر فى النفس بروعتها . ويكفى ما بقى من المعبدين للدلالة على أن الذوق اليونانى لم يكن مقصوراً على أثينة وحدها ، وعلى أن الغرب التجارى نفسه قد أدرك أن « الرقى ليس فى الضخامة » . وفى أكروجاس ولد إمپدقليز العظيم ، ولا يبعد أن يكون قد مات فيها أيضاً لا فى فوهة بركان إتنا Etna .

وبدأت سرقوسة بالصورة التى هى عليها اليوم — قرية محتشدة على لسان ارتجيا Ortygia الجبلى الممتد فى البحر . وكانت كورنثة قد أرسلت فى القرن الثامن جماعة من المستعمرين مسلحين بأخلاق قويمة وأسلحة متفوقة للاستيلاء على شبه الجزيرة الصغيرة . ولعلها كانت وقتئذ جزيرة ، فبنوا أو وسعوا الطريق الذى يصلها بأرض صقلية ، وطردوا معظم الصقليين إلى داخل الجزيرة . وازداد أبناؤهم كما يزداد أبناء الشعب القوى فى الأرض الكثيرة الموارد ، حتى أصبحت مدينتهم على مر الأيام أكبر المدن فى بلاد اليونان كلها ، فكان طول محيطها أربعة عشر ميلا ، وسكانها نصف مليون . وقام العامة من سكانها الذين لم يكن لهم ما لسائر الأهلين من حقوق سياسية ، ومعهم الصقليون المسترقون بثورة على الأشراف ملاك الأراضى واستولوا منهم على أزمة الحكم فى عام ٤٩٥ . ولكن الدمقراطيـــة الجديدة — إذا جاز لنا أن نصدق أرسطاطاليس[٦٤] ، عجزت عن أن تقيم مجتمعاً منظماً ، وما زالت كذلك حتى قام جيلون الجيلى Gelon of Gela فى عام ٤٨٥ واستبدل بها دكتاتورية مستعيناً على ذلك بخطة من الغدر المستنير . وكان كالكثيرين من أمثاله حاكماً قديراً لا يرعى عهداً ولا ذمة ، يسخر من جميع المبادئ الأخلاقية والقيود السياسية ، جعل من أرتيجيا حصناً منيعاً لحكومته ، وفتح نكسوس ،

وليونتيني ؛ ومسانا ؛ وفرض الضرائب على شرقى صقلية كله ليستعين بها على جعل سرقوسة أجمل العواصم اليونانية . ويقول عنه هيرودوت متحسراً : « وبهذه الطريقة أصبح جيلون ملكاً (*) عظيما »(٦٥) .

ثم صلح حاله وصار باپايون صقلية المعبود ، حين بعث خشيارشاى أسطوله ليهاجم أثينة ، فسير القرطاجنيون عمارة بحرية يكاد عدد سفنها أن يساوى عدد مراكب الأسطول الفارسى ؛ لتنتزع جنة الجزائر كلها من أيدى اليونان . وكان مصير الجزيرة هو نفس المصير الذى لاقته بلاد اليونان حين واجه جيلون هملكار فى هيمرا فى نفس الشهر — أو فى نفس اليوم كما تقول الرواية المتواترة — الذى واجه فيه ثمستكليز خشيارشاى فى سلاميس .

(*) ويقول لوشيان Lucian : « لقد كان جيلون السرقوسى أبخر ، ولكنه لم يعرف ذلك عن نفسه إلا بعد زمن طويل ، لأن أحداً من الناس لم يجرؤ على أن يطلع الطاغية المستبد على هذه الحقيقة حتى جرأت امرأة أجنبية كانت ذات صلة به على أن تطلعه عليها . فما كان منه إلا أن ذهب إلى زوجته وأنبها على سكوتها عن ذلك رغم ما لديها من الفرص الكثيرة التى كانت تمكنها من الإفضاء إليه بهذا السر . وكان دفاعها أنها كانت تظن أن الرجال كلهم على شاكلته لأنها لم تعرف الرجال عن قرب طوال حياتها ولم تقترب منهم قط(٦٦)» . وبذلك لم يجد لنفسه حيلة معها .

الفصل السادس

اليونان فى أفريقية

وكان من حق القرطاجنيين أن يوجسوا فى أنفسهم خيفة ، لأن اليونان شيدوا مدناً عامرة على ساحل أفريقية الشمالى نفسه وأخذوا يستولون على تجارته . فقد أرسل الدوريون أهل ثيرا منذ عام ٦٣٠ جالية كبيرة إلى قورين فى منتصف الطريق بين قرطاجنة ومصر . ووجدوا فيها على حافة الصحراء تربة خصبة ومطراً بلغ من غزارته أن قال عنه أهل البلاد إن فى السماء من فوقهم فرجة تنصب منها الأمطار . واستخدم اليونان بعض الأرض للرعى ، وأصدروا منها إلى الخارج الأصواف والجلود واستنبتوا من نبات الأنجدان تابلا كانت بلاد اليونان بأجمعها تحرص على شرائه ؛ وكانوا يبيعون غلات بلادهم إلى أفريقية ، وارتقوا بحرفهم البدوية إلى حد جعل المزهريات القورينية من أحسن مزهريات العالم .

وانتفعت المدينة بثروتها على خير وجه وأحكمه ، وازدانت بالحدائق الغناء ، وبأعظم الهياكل والتماثيل وحلبات الألعاب . وفيها ولد ارستپوس Aristippus أول فيلسوف أبيقورى ذائع الصيت ، وإليها عاد بعد تجوال طويل ليؤسس المدرسة القورينية .

وحط اليونان رحالهم فى مصر نفسها وهى المعروفة بكراهيتها لاستيطان الأجانب بها(*)؛ وأنشأوا لهم فيها آخر الأمر إمبراطورية . فقد أنشأ الميليتيون حوالى عام ٦٥٠ محطة تجارية عند نقراطيس على فرع النيل الكانوبى . وسمح

(*) هذا ما يؤيده التاريخ نقيضه فقد كانت مصر على الدوام كريمة مضيافة لنزلائها الأجانب الصالحين ينعمون بخيراتها كما ينعم بها أبناؤها . (المترجم)

لهم أبسمانيك الأول فرعون مصر بإنشائها لأنهم يصلحون لأن يكونوا جنوداً مرتزقين ، ولأن تجارتهم كانت غنيمة طيبة له يحصل منها جباتُه على ضرائب جمركية عالية(٦٧) . ووهبهم أحمس الثانى قسطاً كبيرا من الحكم الذاتى ؛ وأصبحت نقراطيس مدينة صناعية أوكادت ، تنتج الفخار ، والقرميد ، والخزف الرقيق ؛ وأهم من هذا أنها أصبحت مستودعاً تجارياً عظيما ، يأتى إليها زيت بلاد اليونان وخمرها ، وترسل قمح مصر وتيلها ، وصوفها وعاج أفريقية وعطورها وذهبها . وانتقلت مع هذه المتاجر معارف مصر ، وطقوسها الدينية ، وعمارتها ، ونحتها ، وعلومها الطبيعية إلى بلاد اليونان ، كما دخلت مصر مع غلات اليونان ألفاظهم وأساليبهم فى الحياة ، فمهدت السبيل إلى سيطرة اليونان على مصر فى العصر الإسكندرى .

وإذا تصورنا مركباً يونانيا يسير من نقراطيس إلى أثينة ؛ أتممنا بذلك طوافنا حول العالم اليونانى . ولقد كان واجباً علينا أن نطوف هذا الطواف الطويل لكى ندرك مدى الحضارة الهيلينية ونشعر باختلاف مظاهرها . ولقد قص علينا أرسطاطاليس تاريخ النظام الدستورى فى ١٥٨ دولة من دول المدن اليونانية ، ولكنه أغفل تاريخ ألف مدينة غيرها . لقد كانت كل واحدة منها تضطلع بنصيبها فى تجارة البلاد التى نطلق عليها اسم بلاد اليونان ، وصناعتها ، وتفكيرها . وفى المستعمرات لا فى أرض اليونان الأصلية ولد فنا الشعر والنثر اليونانيان ونشأت علوم الرياضة وعلوم ما وراء الطبيعة ، والخطابة والتاريخ ، اليونانية . ولولا هذه المستعمرات وعشرات المئآت من اللوامس الماصة التى بثتها فى العالم القديم تمتص بها ما فيه من علم وفن وثقافة ، ولولا هذه وتلك لما وُجدت الحضارة اليونانية وهى أثمن نتاج التاريخ بأجمعه ، وعن طريق هذه المستعمرات واللوامس انتقلت حضارة مصر والشرق إلى بلاد اليونان ، وانتشرت الثقافة اليونانية انتشاراً بطيئاً فى آسية وأفريقية وأوربا .